بُورتريت

فوزي كريم

«كل شراع لم يعد اليك يا مخافر الحدود - لا باحثا سدى عن المعنى، ولكن هربا من المعاني السود - فهو شراعي».

- ١ -

انظرْ الى وجهي جيدا. انظر الى هاتين العينين، هذه التجاعيد، وهذه الصفرة الخالصة التي تشرّبتها. حدقْ جيداً بالشَّعر الاجعد الرمادي الذي يغطي صلعا حقيقيا. حدق بكل هذا، وقل لي ما ينبو عنه من النور والعتمة. فانا بصير بكلا هاتين اشد ما تلم به البصيرة وافجع.

انا كاتب عربي. وجهي ينمّ عن ذلك بكل تأكيد. ولعلك لا تخطىء هذا الكدر الذي لم يخلق لبشرة كائن سوي. ولا هذه الصفرةُ التي تنم عن نشَافٍ روحي لا حدود له، ولا هاتين العينين الغائرتين اللتين تحدقان ولكن لا الى خارج، بل الى شيء خفي غير ظاهر. شيء خفي فاجع على الارجح. والفم المترهل، وكأن شفتيه قد زُمّتا وهمّتا زمنا طويلا لتقولا شيئاً قاطعاً، ثم ترهلتا يأساً او عجزاً.

انظر الى وجهي جيدا، وارشف معي هذه الكأس لتعطي كلينا مزيدا من القدرة؛ انا على الكلام وانت على الاصغاء.

- ٢ -

لا تستشف من كلامي نبرة غضب، ولا تجتهد فيما تريد ان تجعل مما اقول صوت احتجاج وضرخة غضب. تخلَّ عن التزوير الذي تطامنّا عليه، وحدق في لغة اليأس. ولا تقل لي ان بين لغة اليأس وبين لغة الاحتجاج والرفض صفحة رقيقة. فأنا اعرف معك هذه اللعبة واعرف اننا شاركنا فيها جميعا، واننا موّهنا كثيرا على انفسنا وعلى قواميس اللغة وما زلنا: ارضاء لسلطان نطمع في بركته، ولشعب نطمع في غفلته. لان بين لغة اليأس ولغة الاحتجاج والرفض هوة تفصل بين واقعين. ونحن ابناء اليأس نحتج بدافع الخجل ونرفض بدافع الذنب. ثم لا نكتفي بذلك، بل نعيد اللعبة، مستمتعين بالتضحية الروحية وقد لفّنا رداء بين طياته، وها نحن نتنفس غبارا، ونغني ويلات الفردوس الذي نسكنه فهي ثماره وحصاده.

لقد ولدت، انا ابن المشرق العربي، في مدينة من طين. ولم تزحمني، حين كبرت، الثقافات الانسانية، فلقد وجدتُ بينها وبين الازقة الضيقة واسرار الابواب القديمة، ما بين الغابة والطائر، اذ منحتني حرية البصيرة وحرارة المكتشف. واوعزت لنفسي بمئات المشاريع وآلاف الافكار. وقلت ما لا اقوله لك الان - ان هذا المشرق العربي مادة خام، وان ظلال رفارف السطوح والشرفات الخشبية المزججة، وصدأ مرصعات النحاس، ان اسرار الليل في المواطن غير المأهولة، واسرار النهار في هذه الاركان المأهولة. وان الحواس وما تنطوي عليه من ضجيج، وهذا الحوار الدائب الذي لا يخمد، بين الناس والدواب والاسماك والزواحف والطيور، والذي يشكل معنى الوحدة التي يحتاجها الفن... قلت ان كل هذا كفيل - مع خبرة الثقافات الانسانية - ان يحرر عفريتا من عقاله، لينطلق حول هذه القباب والمآذن، وعلى امتداد هذا الجفاف المصوّت عبر الانهر المهجورة، ساحباً ذيله الأسود الداكن بين الأزقة نصف المعتمة، ماسحاً عتبات بيوتها ونثار نفاياتها ومياه مجاريها ذات الرائحة، ومخلفاً - كما على الأفق دخان خياله المجنّح - في مخيلتي ومخيلة كتّابنا في هذا المشرق العربي، كل ما يطمح اليه كاتب ذو ضمير. وتفننت في انكار طليعية الفن التي شممت فيها رائحة حضارة تكنولوجية، وبحاسة الحرص على الدم الحالم، رحت اتمرغ بصنوف عذاب الاجتهاد: الكتابة المحافظة ولكن الجوهرية. الكتابة المشرقية. الكتابة...

اذ ان فكرة المادة الخام زرعت في رأسي فكرة التنوع، ورحت اقلب عيني في ثياب امرأة الجنوب المنبسط، وابنة الشمال الجبلي، والثياب المزدهرة بربيع الوان غير منسجمة.. ثم اخذت قلما وورقة، ورحت اخطط كل اجتهادات الشارع وما ينم عما وراءه من اسرار الكائنات التي تنطوي على نفسها ليلا. وفزعت من هذا الاكتشاف المعتم، وصفقت لمخلوقات الشارع: ثوار وشعراء ومغنين.. ومحدقين في النجوم: ولكل هذا التنوع في فن الكتابة تذكرت فن الرسائل وفن الخطب وفن الامثال وفن السير وفن النقد وفن القصص وفن الشعر وفن انتحاله وفن البند وفن المقامة وفن الانساب وفن الاخبار وفن التاريخ وفن الاسفار الروحية والجغرافية وفن التصوف وفن التراجم وفن المعاجم: معاجم اللغة ومعاجم الاعلام ومعاجم البلدان وفن العبادة وفن الالحاد.. وفنون الشكل، اعني تلك تكتب للهلوسة والتضرع الى الحروف. ثم جفلت حين رأيت ان كل ذلك ينتمي الى عصر غير هذا العصر. ولكننا من دم واحد. ورأيت ان ما انتمي اليه - ولكن دمه غير دمي - هو عنصر الوحدة التي فزعت منه: فلقد كثرت حولي مزالق الطحلب اللزج بفعل الماء الراكد، وفي كل صوب انظر او اتجه انكفىء على وجهي.

★

انا عربي، ابن العسكر. وابي عربي وابن الحياة النيابية الزائفة. والوحدة التي كانت زهرة من البلاستيك على ثياب ابي اصبحت شعارا مطرزا بالنحاس والحديد على ثيابي. واذا كان مصدرها القديم ينحدر، زائفا، من معنى الاتحاد، فان مصدرها الحديث ينحدر من معاني التوحيد والانفراد، (وحدة القائد من وحدة الله)...

وقد انعكس هذا على ارض عارية: فاختلق كتاباً وكتاباتٍ، ومنح وحدة القدر مكانا لا يعلو عليه مكان. حتى عجزت عن اختراق كثافة هذا الظل المريع، وتساءلت عن قدر الكاتب ان يكون شاعرا، او قاصا، او ناقدا. وعن قدر المجلات ان تبوب للشعر والقصة والنقد، وعجبت اين ستوضع مادة تكتب في مزهريات الازهار، ومادة تحصي انفاس المعذبين في الظل وفي المنافي؟ ثم فزعت اكثر حين عرفت ان تحت هذا سراً من الاسرار، اسرار التنوع والوحدة، وان الامر لا يقف عند هذا، فهناك من ينتصر لهذا الجانب ضد ذاك، وان هناك جوائز للمنتمين، وغياهب مجهولة لغير المنتمين، وعلى الرغم من انني وجدت الصبر على هذا أحجى، الا ان المنتمين من جيلي، كتاب الشعر والقصة والنقد لم يتركوا فراغا للتأمل بيني وبين وحدة الاتحاد وبيني وبين وحدة التوحيد والانفراد، فصاروا وسطاء، ولان وسطاء القائد اقرب الى الطبع، فقد نصحوا بالبذل، وكشفوا عن حاجات الدنيا، وطمّعوا النفس الضائعة برفاه الاقامة ورفاه الجسد. فأصبح الحرف على لسان احدهم كأظلاف البعير، ينبسط ولا يخترق. وبدل ان أحاور نفسي صرت احاورهم، وبدل ان اجاورهم صرت اجاريهم.

ولانني احب خمرة كاردينيا، ولا اسمع الا وقع خطواتي، فقد مددت يدي كالسائر في نومه، متجها الى الارصفة، حانيا على ظلي، وقد ألهبتني رائحة الشواء، في البيوت والازقة، وفي عيني ربيع الالوان غير المنسجمة.

ولم اعرف ان في كل هذا مجانبة للتوحيد، وان التنوع زلة على اللسان.

فكم زل لساني اذن؟

- ٣ -

انا ابن هذا الجيل.

هربت بثيابي وعلقت الزمن مقفلا على بوابة بيتنا القديم.

لانني وانا افكر بالتجوال، رأيت كل مشاريع المقاولين. فقد هدمت العمارة القديمة: اسواقٌ وشوارعُ وبيوتٌ. وحلت مكانها اسواق وشوارع وبيوت اخرى. ولان مدنا وقرى واحياء قد ازيلت لهذا السبب او ذاك، فقد استعيض عنها بمزيد من الرغبة فيما يثبت ان هذه الازالة وهذا القمع ليس الا سلوانا للنفس.

وبقيت ضائعا، مثخنا بجراح من لا ملجأ له ولا مأوى. فلقد قُلبت المدينة وقلبت معها الحروف التي هي ظلها ومرآة قيمها. لان العمارة، على ما ارى، انما هي القيم ولقد استحضرها المجموع، فاذا ما رأيت اعمدة فانما هي اعمدة حكمة ما. او اقواسا فانما هي اقواس روحية، او منمنمات وزخارف فانما هي تجليات.

وعمارة المقاولين هي عمارة الفرد الزائل.

- ٤ -

انا ابن هذا الجيل، وكل جيل قادم.

ودعوتي اليك ان تصغي، وانا اتكلم، هي دعوة مفلسة. فنحن لم نحسب حساب الحياة النيابية الزائفة، ولا ثورة العسكر. ولم نصغ الى الدوي في الهوة التي تفصل بين لغة اليأس ولغة الاحتجاج، ولا المصائر التي يمكن ان تترتب على هذا الواحد وذلك التنوع. فالواحد اخترناه، ونتحرك داخل دائرة ظله، لا نتجاوزها. وهي دائرة نحببها الى انفسنا كل

يوم، بل كل لحظة، ونعيمنا في راحتيه. وعلى بابه نفضل الوقوف على ان نقف على النفس.

ولانهم دعوني للوقوف معهم الى جانب الحاجب، منتظرين، وقد اظهروا مفاتن سعادتهم القصوى، ولانني فضلت على ذلك ان اقف على نفسي، غير معافى، ولا رشاد لي، زلانهم اقاموا للثورة كرنفال الجثث، واحاطوا مراسيمها بالاشباح. ولانهم كتبوا الشعر على شرف من لا شرف لهم، ووسموه بعار المرحلة. ولانهم أعطوا ظهورهم للضحايا والمهجرين. ولانهم لوحوا لعربيتي بالتهديد ولساني بالعجمة، وشكوكي باليقين. ولانهم اصحاب العمل، وقد اقتصر الشرف عليه. ولان ارواحهم - وقد اوقفوها على الواحد تراتيل دامية.

ولان روح الجماعة في العمران، وقد استحوذ عليها المقاول، الى زوال.

ولان الماضي الذي لا حدود له اصبح في قبضة الدولة، والحاضر تحديق مرير في الآتي.

ولان الجوقة على ما ارى.

وقد استشرى فساد الضمير الى هذا الحد،

في لغة الشعر ولغة الوثائق

ولان الفقراء، وقد اخذتهم الدهشة، يحدقون مزيدا من التحديق

وهم يحصون ايامهم على الحيطان.

لم اجد بديلا من ان اخاطبك، وقد حل بيننا الكأس؛ وتصغي الي!

دار الآداب تنشر

الدراما التجريبية في مصر والتأثير الغربي عليها

الدكتورة حياة جاسم محمد